فاستطعنا أن نستخدم آلات حديثة متطورة تقوم بعملية الحرث والبذر . .

ولكن الحقيقة الثابتة التى لم تتغير منذ بداية الكون ولن تتغير حتى نهايته . . هى أن مهمة الانسان أن يحرث ويضع البذرة فى الأرض ويسقيها . . أما نمو الزرع نفسه فلا دخل للانسان فيه . . وكذلك الثمر الذى ينتجه لا عمل للإنسان فيه . .

ولقد نبهنا الله تبارك وتعالى الى هذه الحقيقة حتى لا نغتر بحركتنا فى الحياة ونقول إننا نحن الذين نزرع . . واقرأ قول الحق جل جلاله فى سورة الواقعة :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وهكذا ظلت مهمة الفلاحة فى الأرض مقصورة على الحرث والسقى والبذر ، وحينما تلقى الحبة فى الأرض يخلق الله فى داخلها الغذاء الذى يكفيها حتى تستطيع أن تأخذ غذاءها من الأرض . . واذا جئت بحبة وبللتها تجد أنها قد نبت لها ساق وجذور . . من أين جاء هذا النمو ؟ . من تكوين الحبة نفسه ، والله تبارك وتعالى قد قدر فى كل حبة من الغذاء ما يكفيها حتى تستطيع أن تتغذى من الأرض . . وعلى قدر كمية الغذاء المطلوبة يكون حجم الحبة . . وحين تضعها فى الأرض فإنها تبدأ أولا بأن تغذى نفسها . . بحيث ينبت لها ساق وجذور وورقتان تتنفس منهما . . كل هذا لا دخل لك فيه ولا عمل لك فيه . . وتبدأ الحبة تأخذ غذاءها من الأرض والهواء . . لتنمو حتى تصبح شجرة كبيرة تنتج الثمر من نوع البذرة نفسه .

ومن هنا جاءت كلمة ( المفلحون ) . . ليعطينا الحق جل جلاله من الأمور المادية المشهودة ما يعين عقولنا المحدودة على فهم الغيب . . فيشبه التكليف وجزاءه فى الآخرة بالبذرة والفلاحة . . أولا لأنك حين ترمى بذرة فى الأرض تعطيك بذورا كثيرة . .

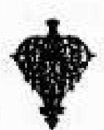
واقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

واذا كانت الأرض وهى المخلوقة من الله تهبك أضعاف أضعاف ما أعطيتها .. فكيف بالخالق ؟ .. وكم يضاعف لك من الثواب فى الطاعة ؟ .. هذا هو السبب فى أن الحق تبارك وتعالى يقول : « وأولئك هم المفلحون » .. حتى يلفتنا بمادة الفلاحة .. وهى شيء موجود نراه ونشهده كل يوم .

وكما أن التكليف يأخذ منك أشياء ليضاعفها لك .. كذلك الأرض أخذت منك حبة ولم تعطك مثل ما أخذت ، بل أعطتك بالحبة سبعمائة حبة .. وهكذا نستطيع أن نصل بشيء مشهود يُفَصِّلُ لنا شيئا غيبيا .



﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وبعد ان تحدث الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين وصفاتهم .. وجزائهم فى الآخرة ومايتنظرهم من خير كبير .. اراد ان يعطينا تبارك وتعالى الصورة المقابلة وهم الكافرون .. وبين لنا ان الايمان جاء ليهيمن على الجميع يحقق لهم الخير فى الدنيا والأخرة .. فلابد ان يكون هناك شر يحاربه الايمان .. ولولا وجود هذا الشر .. أكان هناك ضرورة للايمان .. إن الانسان المؤمن يقى نفسه ومجتمعه وعالمه من شرور يأتى بها الكفر ..

والكافرون قسمان .. قسم كفر بالله اولا ثم استمع الى كلام الله .. واستقبله بفطرته السليمة فاستجاب وآمن .. وصنف آخر مستفيد من الكفر ومن الطغيان ومن الظلم ومن اكل حقوق الناس وغير ذلك .. وهذا الصنف يعرف ان الايمان اذا جاء فانه سيسلبه جاها دنيويا ومكاسب يحققها ظلما وعدوانا ..

اذن الذين يقفون امام الايمان هم المستفيدون من الكفر .. ولكن ماذا عن الذين كانوا كفارا واستقبلوا دين الله استقبالا صحيحا ..

هؤلاء قد تتفتح قلوبهم فيؤمنون . والكفر معناه الستر .. ومعنى كَفَرَ ( أى ) سَتَرَ .. وكفر بالله اى ستر وجود الله جل جلاله .. والذى يستر لابد ان يستر موجودا ، لأن الستر طارىء على الوجود .. والاصل فى الكون هو الايمان بالله .. وجاء الكفار يحاولون ستر وجود الله . فكأن الاصل هو الايمان ثم طرأت الغفلة على الناس فستروا وجود الله سبحانه وتعالى .. ليبقوا على سلطانهم او سيطرتهم او استغلالهم او استعلائهم على غيرهم من البشر ..

ولفظ الكفر فى ذاته يدل على ان الايمان سبق ثم بعد ذلك جاء الكفر .. كيف ؟ ..

لأن الخلق الاول وهو آدم الذى خلقه الله بيديه . . ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكه . . وعلمه الاسماء كلها . .

سجود الملائكه وتعليم الاسماء أمر مشهدى بالنسبة لآدم . . والكفر ساعتها لم يكن موجودا . . وكان المفروض ان ادم بعد ان نزل الى الارض واستقر فيها . . يلقن ابناءه منهج عبادة الله لأنه نزل ومعه المنهج فى (افعل ولا تفعل) وكان على ابناء آدم ان يلقنوا ابناءهم المنهج وهكذا . .

ولكن بمرور الزمن جاءت الغفله فى أن الايمان يقيد حركة الناس فى الكون . . فبدأ كل من يريد ان يخضع حياته لشهوة بلاقيود يتخذ طريق الكفر . . والعاقل حين يسمع كلمة كفر . . يجب عليه ان يتنبه الى ان معناها ستر لموجود واجب الوجود . . فكيف يكفر الانسان ويشارك فى ستر ماهو موجود . . لذلك تجد ان الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا يأتى هذا السؤال . . ولا يستطيع الكافر له جوابا !! لأن الله هو الذى خلقه وأوجده . . ولايستطيع احد منا ان يدعى انه خلق نفسه او خلق غيره . . فالوجود بالذات دليل على قضية الايمان . . ولذلك يسألهم الحق تبارك وتعالى كيف تكفرون بالله وتسترون وجود من خلقكم ؟ . .

والخلق قضية محسومة لله سبحانه وتعالى لايستطيع احد ان يدعيها . . فلا يمكن ان يدعى أحد أنه خلق نفسه . . قضية انك موجود توجب الايمان بالله سبحانه وتعالى الذى اوجدك . . انه عين الاستدلال على الله . . واذا نظر الانسان حوله

فوجد كل ماق الكون مسخرا لخدمته والاشياء تستجيب له فظن بمرور الزمن ان له سيطرة على هذا الكون . . ولذلك عاش وفى ذهنه قوة الاسباب . . يأخذ الاسباب وهو فاعلها فيجدها قد اعطته واستجابت له . . ولم يلتفت الى خالق الاسباب الذى خلق لها قوانينها فجعلها تستجيب للانسان . . وقد اشار الحق تبارك وتعالى الى ذلك فى قوله جل جلاله :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾

(سورة العلق)

ذلك ان الانسان يحرث الارض فتعطيه الثمر . . فيعتقد انه هو الذى اخضع الارض ووضع لها قوانينها لتعطيه مايريد . . يضغط على زر الكهرباء فينير المكان فيعتقد انه هو الذى اوجد هذه الكهرباء ! يركب الطائرة . . وتسير به فى الجو فيعتقد انه هو الذى جعلها تطير . . وينسى الخصائص التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى الغلاف الجوى ليستطيع ان يحمل هذه الطائرة . . يفتح التليفزيون ويرى أمامه احداث العالم فيعتقد ان ذلك قد حدث بقدرته هو . . وينسى ان الله تبارك وتعالى وضع فى الغلاف الجوى خصائص جعلته ينقل الصوت والصورة من اقصى الدنيا الى اقصاها فى ثوان معدودة . . وهكذا كل ماحولنا يظن الانسان انه اخضعه بذاته . . بينما كل هذا مسخر من الله سبحانه وتعالى لخدمة الانسان . . وهو الذى خلق ووضع القوانين . . نقول له انك لو فهمت معنى ذاتية الاشياء ماحدثتك نفسك بذلك . . الشيء الذاتى هو ما كان بذاتك لايتغير ولا يتخلف ابدا . . انما الامر الذى ليس بذاتك هو الذى يتغير . .

واذا نظرت الى ذاتيتك تلك التى اغرتك واطغتك . . ستفهم ان كلمة ذاتية هى الا تكون محتاجا إلى غيرك بل كل شيء من نفسك . . وانت فى حياتك كلها ليس لك ذاتية ؛ لأن كل شيء حولك متغير بدون ارادتك . . وانت طفل محتاج إلى أبيك فى بدء حياتك . . فاذا كبرت وأصبح لك قوة واستجابت الاحداث لك فإنك لا تستطيع ان تجعل فترة الشباب والفتوة هذه تبقى . . فالزمن يملك ولكن لفترة محدودة . . فاذا وصلت الى مرحلة الشيخوخة فستحتاج الى من يأخذ بيدك ويعينك . . ربما على ادق حاجاتك وهى الطعام والشراب . .

إذن فأنت تبدأ بالطفولة محتاجا إلى غيرك . . وتنتهى بالشيخوخة محتاجا إلى غيرك . . وحتى عندما تكون فى شبابك قد يصيبك مرض يقعدك عن الحركة . . فاذا كانت لك ذات حقيقية فادفع هذا المرض عنك وقل لن امرض . . انك لا تستطيع . .

الله سبحانه وتعالى اوجد هذه المتغيرات حتى ينتهى الغرور من الانسان نفسه . . ويعرف انه قوى قادر بما اخضع الله له من قوانين الكون . . لنعلم اننا جميعا محتاجون الى القادر ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وان الله غنى بذاته عن كل خلقه . . يغير ولا يتغير . . يميت وهو دائم الوجود . . يجعل من بعد قوة ضعفا وهو القوى دائما . . ماعند الناس ينفد وما عنده تبارك وتعالى لاينفد أبداً . . هو الله فى السموات والارض .

اذن فليست لك ذاتية حتى تدعى انك اخضعت الكون بقدراتك . . لانه ليس لك قدرة ان تبقى على حال واحد وتجعله لايتبدل ولا يتغير . . فكيف تكفر بالله تبارك وتعالى وتستر وجوده . . كل مافى الكون ومافى نفسك شاهد ودليل على وجود الحق سبحانه وتعالى . .

قلنا ان الكافرين صنفان . . صنف كفر بالله وعندما جاء الهدى حكم عقله وعرف الحق فآمن . . والصنف الآخر مستفيد من الكفر . . ولذلك فهو متشبث به مهما جاءه من الايمان والادلة الايمانية فإنه يعاند ويكفر . . لانه يريد ان يحتفظ بسلطاته الدنيوية ونفوذه القائم على الظلم والطغيان . . ولا يقبل ان يُجَرَّدَ منها ولو بالحق . . هذا الصنف هو الذى قال عنه الله تبارك وتعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون »

إنهم لم يكفروا لأن بلاغا عن الله سبحانه وتعالى لم يصلهم . . ولم يكفروا لأنهم فى حاجة الى ان يلفتهم رسول او نبى الى منهج الله . . هؤلاء اتخذوا الكفر صناعة ومنهج حياة . . فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادة ولانهم متميزون عن غيرهم بالباطل . . ولانهم لو جاء الايمان الذى يساوى بين الناس جميعا ويرفض الظلم ، لأصبحوا اشخاصا عاديين غير مميزين فى اى شىء . .

هذا الكافر الذى اتخذ الكفر طريقا لجاه الدنيا وزخرفها . .سواء أنذرته أم لم تنذره فانه لن يؤمن . . انه يريد الدنيا التى يعيش فيها . . بل ان هؤلاء هم الذين يقاومون الدين ويحاربون كل من آمن . . لأنهم يعرفون ان الايمان سيسلبهم مميزات كثيرة . . ولذلك فإن عدم ايمانهم ليس عن ان منهج الايمان لم يبلغهم . . او ان أحدا لم يلفتهم الى ايات الله فى الارض . . ولكن لأن حياتهم قائمة ومبنية على الكفر .



﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

وكما اعطانا الحق سبحانه وتعالى اوصاف المؤمنين يعطينا صفات الكافرين .. وقد يتساءل بعض الناس اذا كان هذا هو حكم الله على الكافرين ؟ فلماذا يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان منهم وقد ختم الله على قلوبهم ؟! ومعنى الختم على القلب هو حكم بألا يخرج من القلب ما فيه من الكفر .. ولا يدخل اليه الايمان ..

نقول ان الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين .. فان استغنى بعض خلقه عن الايمان واختاروا الكفر .. فان الله يساعده على الاستغناء ولا يعينه على العودة الى الايمان .. ولذلك فان الحق سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى :

« انا عند ظن عبدى بى وانا معه حين يذكرنى .. فإن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وان اقترب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان اقترب الى ذراعا اقتربت اليه باعا وان اتانى يمشى اتيته هرولة » (١)

وقد وضح الحديث القدسى ان الله تبارك وتعالى يعين المؤمنين على الايمان ، وان الله جل جلاله كما يعين المؤمنين على الايمان .. فانه لايهمه ان يأتى العبد الى الايمان أو لا يأتى .. ولذلك نجد القرآن دقيقا ومحكما بأن من كفروا قد اختاروا الكفر بإرادتهم.واختيارهم للكفر كان اولا قبل ان يختم الله على قلوبهم .. والخالق جل جلاله اغنى الشركاء عن الشرك .. ومن اشرك به فإنه فى غنى عنه .

ان الذين كفروا .. اى ستروا الايمان بالله ورسوله .. هؤلاء يختم الله بكفرهم على آلات الادراك كلها .. القلب والسمع والبصر . والقلب أداة ادارك غير ظاهرة .. وقد قدم الله القلب على السمع والبصر فى تلك الآية لانه يريد ان يعلمنا

---

(١) رواه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الذكر والدعاء

منافذ الادراك .. وفى القرآن الكريم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا يعلمنا الله ان منافذ العلم فى الانسان هى السمع والابصار والافئدة .. ولكن فى الاية الكريمة التى نحن بصددها قدم الله القلوب على السمع والابصار .. ان الله يعلم انهم اختاروا الكفر .. وكان هذا الاختيار قبل ان يختم الله على قلوبهم .. والختم على القلوب .. معناه انه لايدخلها ادراك جديد ولايخرج منها ادراك قديم .. ومهما رأت العين أو سمعت الأذن .. فلا فائدة من ذلك لأن هذه القلوب مختومة بخاتم الله بعد ان اختار اصحابها الكفر واصروا عليه .. وفى ذلك يصفهم الحق جل جلاله :

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكن لماذا فقدوا كل ادوات الادراك هذه ؟ .. لأن الغشاوة التفت حول القلوب الكافرة ، فجعلت العيون عاجزة عن تأمل آيات الله .. والسمع غير قادر على التلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

اذن فهؤلاء الذين اختاروا الكفر واصروا عليه وكفروا بالله برغم رسالاته ورسله وقرآنه .. ماذا يفعل الله بهم ؟ انه يتخلى عنهم.ولأنه سبحانه وتعالى غنى عن العالمين فإنه ييسر لهم الطريق الذى مشوا فيه ويعينهم عليه .. وأقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ويقول جل جلاله :

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ومن عظمة علم الله تبارك وتعالى أنه يعلم المؤمن ويعلم الكافر . . دون أن يكون جل جلاله تدخل فى اختيارهم . . فعندما بعث الله سبحانه وتعالى نوحا عليه السلام . . ودعا نوح إلى منهج الله تسعمائة وخمسين عاما . وقبل أن يأتى الطوفان علم الله سبحانه وتعالى أنه لن يؤمن بنوح عليه السلام إلا من آمن فعلا . . فطلب الله تبارك وتعالى من نوح أن يبنى السفينة لينجو المؤمنون من الطوفان . . وأقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة هود)

وهكذا نرى أنه من عظمة علم الله سبحانه وتعالى . . أنه يعلم من سيصر على الكفر وأنه سيموت كافرا . . وإذا كانت هذه هى الحقيقة فلماذا يطلب الله تبارك وتعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغهم بالمنهج وبالقرآن ؟ . . ليكونوا شهداء على أنفسهم يوم القيامة . . فلا يأتى هؤلاء الناس يوم المشهد العظيم ويجادلون بالباطل . . أنه لو بلغهم الهدى ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمنوا . . ولكن لماذا يختم الله جل جلاله على قلوبهم ؟ . . لأن القلب هو مكان العقائد . . ولذلك فإن القضية تناقش فى العقل فاذا انتهت مناقشتها واقتنع بها الانسان تماما فانها تستقر فى القلب ولا تعود الى الذهن مرة أخرى وتصبح عقيدة وايمانا . . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الحج)

وإذا عمى القلب عن قضية الايمان . . فلا عين ترى آيات الايمان . . ولا أذن تسمع كلام الله . . وهؤلاء الذين اختاروا الكفر على الايمان لهم فى الآخرة عذاب عظيم . . ولقد وصف الله سبحانه وتعالى العذاب بأنه أليم . . وبأنه مهين . . وبأنه عظيم . . العذاب الأليم هو الذى يسبب ألما شديدا . . والعذاب المهين هو الذى يأتى لأولئك الذين رفعهم الله فى الدنيا . . وأحيانا تكون الاهانة أشد إيلاما للنفس من ألم العذاب نفسه . . أولئك الذين كانوا أئمة الكفر فى الدنيا . . يأتى بهم الله تبارك وتعالى يوم القيامة أمام من اتبعوهم فيهينهم . . أما العذاب العظيم فإنه منسوب الى قدرة الله سبحانه وتعالى . . لأنه بقدرات البشر تكون القوة محدودة . . أما بقدرات الله جل جلاله تكون القوة بلا حدود . . لأن كل فعل يتناسب مع فاعله . . وقدرة الله سبحانه وتعالى عظيمة فى كل فعل . . وبما أن العذاب من الله جل جلاله فانه يكون عذابا عظيما .

